مقدمة:

إن رواية "أن تقتل طائراً بريئاً" متعة بلا حدود، فهي قصة حياتية تتعرف من خلالها على فترة زمنية مكانية عرقية لخلفية بيضاء وأخرى ملونة في جنوب الولايات المتحدة وبالذات في منزل رجل قانون علم ابنيه "جيم" وجان لويز "سكاوت" القانون مبسطاً فيه حب العدل والقيم وأنه يمكن العيش بطريقة أخلاقية، فيجب أن تتعلم كيف تصوب ولكن إياك أن تقتل السعادة والبهجة في قلوب الآخرين؛ تقتل طائرًا محاكيًا. وأحداث هذه الرواية تدور في ثلاثينات القرن الماضي في ولاية آلاباما في مايكوم في مزج رائع بين العربية المعاصرة والعامية للنسخة المترجمة.

وإنني أسجل هنا أن الكاتبة لم تخجل من عرض ملخصٍ وافٍ لما تعرض له الأمريكيون الأفارقة وإنما وضعت الصورة كاملة، فحين تكون أخطاؤنا أمام عيوننا ونعترف بها ونخجل منها – هنا بداية طريق الإصلاح فلا صلاح بدون معرفة الأخطاء ومعالجتها بصدق وليس تخبئتها والتستر عليها.

الإهداء:

لقد قامت بترجمة هذه الرواية د. داليا الشيال وأهدتها إلى والدها د. سعد الشيال في كلماتٍ تمس القلب "تقديرًا لأبوة حانية ألمس آثارها في قلبي وعقلي"، فالتركيبة الثقافية والعاطفية ساهمت بقدرٍ كبيرٍ حتى جاءتنا هذه الترجمة التي تجعلك تعيش الأحداث بل وتستغرقك الأحداث ثم تتسلل إلى وجدانك فتعيش تلك الفترة بحلوها ومرها، بل وتتساءل هل إذا رجعت آلة الزمن إلى ذلك العصر فبماذا كنت سأشارك؟ وهل سيكون لي دورٌ ايجابيٌ في الأحداث أم سأجلس في مكان المتغربين.

إن شخصية مستر/ أتيكوس هي شخصية رجل لكل العصور ولو وجد الآن فلن يتغير عما كان. ومن يقرأ هذه الرواية سيفكر كثيرًا في تربية أبنائه بطريقة أفضل وكيف يعامل من حوله الذين يضعهم القدر في طريقه.

لقد أفرغت الكاتبة مشاعرها وأحاسيسها وثقافتها وقيمها الإنسانية والدينية – وما يعجبها ويدخل السرور إلى قلبها وأيضًا ما يحزنها ويدخل الكآبة والغضب إلى وجدانها. إن النفس البشرية التي أعطاها الله حرية اختيار الطريق بما فيها من بساطة وغموض يميل العقل إلى الخيال في بعض الأحيان ليجد ركنًا هادئًا في قلبه وعقله يفرغ فيه أحاسيسه وطموحه وأمانيه ومخاوفه، ليجعل لضربات قلبه أمل ومعنى، وهذا ما قام به جيم وسكاوت وديل وعاشوا خيالاً تجاه السيد رادلي وعائلته وكان هذا الخيال يمثل جانبًا هامًا في بناء شخصية كل منهم.

لقد عانى الأمريكيون الأفارقة في جنوب الولايات المتحدة من ظلمٍ ولكنهم مع وجود شخص كالسيد أتيكوس وعائلته تحول هذا الظلم والذل إلى كلمة كفاح، وبمرور الوقت تحولت كلمة كفاح إلى انتصار وتحول الانتصار إلى كيان اجتماعي جديد... كل ذلك خلال سبعين سنة.

وكنت أتمنى أن يحضر مستر أتيكوس فينش وأبناؤه جيم وسكاوت وأبناء مايكوم خطاب الرئيس أوباما بجامعة القاهرة في مصر وأظن أن ذلك سيدفع الكاتبة هاربر لي إلى كتابة قصة أخرى وتسميتها "تغريد الطائر المحايك" لما حدث من تغير نحو النظرة

البغيضة العنصرية التي يذكيها الشيطان ويؤجج لهيبها أعوانه على الأرض، ولا شك أن يصبح رئيس الولايات المتحدة رجلاً ملونًا من أصول أفريقية فهو يعد نبوءة من الكاتبة بما سيحدث وتحقيقًا لأمنية غالية وطنت لها الكاتبة حياتها.

وهذا يدفعنا إلى رؤية جديدة أنه لا شيء ثابت، فما نعتقده اليوم ونؤمن به لن يصير غدًا من معتقدات أولادنا أو أحفادنا، وما يبقى فقط هو القيم التي تعتمد على المحبة وحب الإنسان لأخيه كما يحب نفسه. فالشر يزول والخير دائم إلى انتهاء الأرض.

وربما يكون هناك ضحايا مثل توم روبنسون، ضحى بهم كل عصر، تحب استعباد بعض المعتقدات الخاطئة الشيطانية المنفرة، هؤلاء الضحايا لا تذهب حياتهم سدى لأنهم يكونون علامة من علامات هذا العصر وسيجيء الوقت الذى سيُعاد تكريمهم سواء على الأرض أو في السماء.

أيضًا كل عصر يسير منه القضاء بتوجهات معينة تناسب فكر هذا العصر – فقد يتم الحكم على بريء بالموت وهو بريء – ولذلك تحدث انتفاضات في مختلف المناطق في العالم تكسر قيود هذا الظلم وتلقي بأبطاله إلى إبليس وأعوانه، فبعد أن كانوا حاكمين أصبحوا مجرمين في نظر الله والناس، ويظهر قضاء جديد مبني على العدالة والرحمة. وهكذا تتقلب الأنظمة كما تتقلب الأرض لتجديد شبابها وحيويتها، وغدًا يلد رحم التاريخ مفاجآت كثيرة ولن يصح إلا الصحيح، واليوم إذا أعيد محاكمة توم روبنسون فإننا سنصل بالقضاء أيضًا إلى نتائج عكسية تمامًا وسينال الحكم الذي تم إبرامه سابقًا على سخرية الجميع واعتباره مسرحية هزلية لا تحترم عقول المشاهدين.

في تلك الأجواء عرف السيد أتيكوس فينش كيف يشق الطريق إلى قلب أبنائه فأحبوه، ومن خلال الحب والاحترام تعلموا منه وأحبوا أن يتعلموا، وعوضهم عن فقدان الأم التي هي مصدر الحب والحنان. إنها أبوة مسئولة تترفق بالطفولة وتسير معها لتنمو في جوٍ صحي، وحتى إن حاول البعض اختراق هذه العلاقة الحميمة كالعمة الكسندرا كان لا يجامل بغير عنف ويجتذب الجميع إلى مجاله ليدور الجميع في فلكه. إن تلقين أساسيات الحياة ليست بالتعليم فقط ولكن بالقدوة الحسنة، مثلما كان مستر أتيكوس يفعل في مناصرة المربية كالبورينا التي بقدر الإمكان كانت الأم والمربية، وقد أعطت بتعاملها الراقي مع جيم وسكاوت صورة جميلة عن الملونين. لقد أصبحت –إن صح القول– فردًا من العائلة. ورغم أن مقتل السيد يوويل كان يتمناه الجميع إلا أن السيد/ أتيكوس فينش لم يقبل فكرة أن يوويل سقط على السكين ومال للعدالة والبحث رغم ذراع جيم المكسورة وما حدث له من اعتداء، فالعدل أساس الحكم.

وعندما تغمض العدالة أعينها لا لتحكم بالعدل وإنما فهي لا تريد أن ترى الأمور على حقيقتها، فإن محاكمة توم روبنسون أغفلت توقيع الكشف الطبي بواسطة الطبيب الشرعي على ماييلا لبيان ما حدث لها – ولا تمت معاينة الجروح والكدمات التي اتهم فيها توم روبنسون رغم عجز يده وعدم استطاعته أن يفعل ذلك. إن ماييلا –تلك الشابة الصغيرة التي لم تسمح الحياة بإعطائها خبرة في بعض المجالات– أحس بها السيد أتيكوس فينش ورغم خطئها فقد دافع عنها أيضًا في الإطار القانوني، فقد قال في مرافعته التي تعتبر علامة الطريق نحو الصواب: "إن شفقتي على ماييلا يوويل لن تمتد إلى درجة أن أسمح لها بتهديد حياة توم روبنسون، فقد فعلت ما فعلت لتبعد عن نفسها الشعور بالذنب، وأقول ذلك أيها السادة لأنه هو الذي دفعها إلى أن تفعل

ما فعلته. إنها لم ترتكب جريمة، بل كل ما فعلته مجرد كسر لمجموعة أعراف صارمة في أعراف مجتمعنا؛ أعراف متزمتة إلى حد أن أي شخصٍ يكسرها سينبذ في قلبنا كأنما لا يليق به أن يعيش بيننا، إنها ضحية الفقر القاسي والجهل، ولكن لا أستطيع التعاطف معها، فهي بيضاء. كانت تعرف تمامًا بشاعة فعلتها التي رتبت لها بعناية وتخطيط، ولكنها صممت على كسر تلك الأعراف لأن رغباتها كانت أقوى منها. لقد فعلت شيئًا مارسه كل طفل؛ حاولت أن تبعد دليل جريمتها عن نفسها ولكنها لم تكن طفلاً يخبئ الشيء المحرم الذي سرقه، بل صوبت ضربتها نحو ضحيتها –يجب أن يزال من أمام ناظريها، يجب أن تدمر دليل جرمها".

وإنني لأعتبر أن السيد/ أتيكوس فينش قد دافع عن ماييلا أكثر من الآخرين وفي ذلك دافع عن الجيل كله من المراهقين، وأوضح أمورًا كان يجب أن يتعلمها الطفل بطريقة لا تجعله يدفع بحياته ثمنًا لرغبة خفية في داخله.

ورغم أن أركان القضية واضحة وكان من الممكن الاعتراف بالخطأ وتداركه حيث لم يحدث ضرر على شخص ما ولكن العقول الفاسدة – والشر الكامن في النفس – والكراهية التي أصبحت طريق حياة يغطيها العنصرية وبداخلها نفوس عفنة، فلم يستطع لا القاضي ولا المحلفون أن يتخلصوا من شوائب الحقد بل باعوا أنفسهم للشيطان.

ومن ناحية أخرى، بكى جيم وحزنت سكاوت لأنهم شربوا الحب والعدل مع حليب الرضاعة. وفي النكبات والمحن التي تمر بالبعض وقفت الآنسة مودي التي احترق مترلها ودمرت ممتلكاتها هب الجميع بنفس واحدة وروح الأخوة والمحبة التي تعمل بلا غرض أو هدف لمساعدتها والإقلال في خسائرها بقدر المستطاع حتى إنها قالت أنها كانت تريد أن تتخلص من هذه الموجودات القديمة. لقد كان إحساس الجميع أن هذا الحريق حدث لهم جميعًا. إن روح الألفة والمحبة تنتزع الحزن وتخفف الألم وتحول الإنسان إلى أهداف أخرى وتجعل الحياة أكثر احتمالاً. إن القلب الفرحان يجعل الوجه طلقًا.

إن الإنسان لا يستغل إلا قدر لا يذكر من خاصية الإبداع الموجودة لديه هبه في الله، فقد لعبت سكاوت دور البطولة واستطاعت أن تؤثر في الأحداث عندما واجهت السيد كانينجهام وحولت نوايا الأذى ومحاولات التمرد إلى انكسار وشعور بخيبة الأمل مما جعله يُعرِض عن أفكاره الخسيسة إلى إرغامه بالإحساس بالألفة ودافعت عن والدها الذى تحبه ودافعت عن مبادئ والدها وإيمانها بأن القضية عادلة. لا يستطيع أحد أن يعبر عما بداخل سكاوت إنه نبع من الحب تم استثماره بذكاء وصلاح، بالإيمان أن عصابة من الوحوش يمكن أن توقف عند حدها لأن أفرادها مازالوا بشرًا، وهنا تثير الكاتبة قضية تحتاج إلى دراسة مستفيضة وهي التربية وخلق المواطن الصالح منذ أن يفتح عينيه على الدنيا، بل منذ تدب في الجنين الروح ويبدأ الحركة في بطن أمه.

ولقد عبرت الآنسة راتشيل عن صعوبة تغيير ما يتبعه الناس من أعراف، وأن الحق في بعض الأذهان صعب الإذعان له عندما قالت: "إذا أراد رجل كأتيكوس فينش أن ينطح في الصخر فذاك رأسه وله كامل الحرية في التصرف فيه". وتقابلنا العديد من المواقف التي نقف أمامها لنسجل هدفًا في شبكة التقاليد البالية، والفساد المتوارث، والنوايا غير السوية، لا يسعنا تقديمها في مقالة صغيرة ولكن يلزمنا كتبًا كثيرة لمئلها، فضلاً عن المواقف الكوميدية والتشبيهات التي وردت على لسان سكاوت و غيرها وإن كان بعضها أكبر من مستوى المكان والزمان ولكن هذه المواقف هدأت النفس وأسعدتها في المواقف الساخنة.

كما وردت شخصيات ثانوية وأحداث مختلفة لاستكمال الصور المراد تصويرها مما أعطى انطباعًا كاملاً لتفهم المكان والزمان والأفراد والعادات والتقاليد والأعراف.

إن هذه الرواية على كبر أحداثها إلا أن العرض منظم ومرتب ومناسب، جعلها لا تستطيع أن تنتزع القارئ من داخل الأحداث، فحينما تبدأ لا تهدأ إلا بعد أن ترى كلمة "تمت" فتصاب بصدمة وتود لو عشت فترة أطول مع أحداث رواية كنت لا تستطيع أن تتواجد في مسرح الأحداث لما فيها من أحداث مؤلمة وشعور بعدم الرضا وعنصرية بغيضة.

تمت المقالة

بقلم

د. سيف سعد مرقص